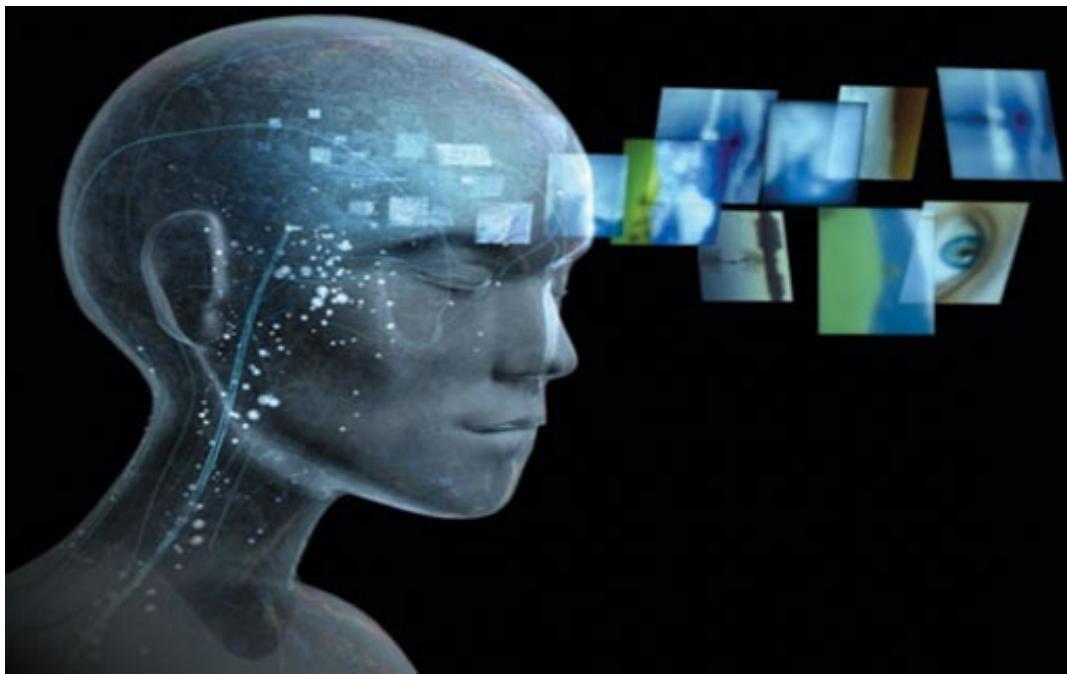


## اللغة أساس الوعي



ـ "إن" اتساع القحف في الإنسان وزيادة حجم دماغه مرتبطة بقدرته على التفكير، وبذاكرته الحادة، وسعة وشدة إدراكه ومخزونه من المشاعر وتعلمه ومرؤنة الاستجابة واستعماله اللغة" [1]. ولعل نشوء اللغة وتطورها لم يكن ممكناً إلا بعد أن بلغ الدماغ عند الإنسان وجهاز الصوت عنده وحاستا السمع والبصر درجة معينة من الارتقاء، حيث "عملت ظروف العيش الآخذة بالتطور على تحسين الأسس الفسلجية المخية للكلام... وهذه عملت بدورها إيجابياً على تحسين المخية الكلامية وفي مقدمتها الفصان الجبهيان والفصان الجداريان" [2]، هذا بالإضافة إلى الفصين الصدغيين اللذين تقع فيما بينهما منطقة تسلم الصوت وتسمى منطقة الكلام المسموع، أما المنطقة الجبهية الدنية من المخ فهي مسؤولة عن الكلام المتحدث به، فالفصان الجبهيان الموجودان في القسم الأمامي الأعلى من القشرة المخية، إذن، يمثلان مراكز الكلام، أما إدراك اللغة وفهمها فإنه يحتل الموضع الخلفية للمخ" [3]، وهذه المراكز تقع على الجهة اليسرى للمخ حسب ما أعلنه عالم اللغة الفرنسي بيير بروكا (1824-1880) بمقولته الشهيرة "نحن نتحدث عن النصف الكروي الأيسر للدماغ" [4]. ولا شك أن التطور قد حصل أيضاً، مع العضلات اللفظية التي باتت بمرور السنين تحت "إمرة المراكز العصبية المنظمة التي تناغم التعليمات التي تتلقاها من الإحساسات الخاصة بالعضلات في أطوار تشنجها" [5]. وعليه يكون القسم الأيسر للدماغ والعضلات اللفظية مهيئين لفهم اللغة لا سيما وأن الإنسان قد جهز أيضاً بالمستلمات (الحواس) التي تنقل الطواهر المستلمة إلى أمكنتها المحددة من الدماغ

ولا سيما مناطق الكلام، فالعصب المخي السمعي مثلاً ينقل الكلمات المسموعة إلى المركز اللغوي المختص بالكلمات المسموعة وليس إلى المركز الحسي السمعي العصبي عموماً، ويقابله العصب الحسي البصري الذي ينقل الكلمات المقرأة المرئية إلى المركز المخي الكلامي البصري وليس إلى المركز البصري عموماً، ذلك أنّه في المركز السمعي وال بصري العصبيين أمكناة محددة للغة والكلام. وهي كما قلنا موجودة في الفصين الصدغيين اللذين يقعان في القسم الأمامي الأعلى، من القشرة المخية. وقد أثبتت الدراسات الحديثة تأثير النشاط العصبي لهذا القسم العلوي من القشرة الدماغية الذي يمثل الحياة العقلية في النشاط العصبي الأدنى الذي يمثل الحياة الانفعالية، حيث هنالك "تأثير متباين بين النشاط المخي اللغوي... وبين النشاط المخي الحسي الذي تشارك فيه مع الإنسان الحيوانات الراقية الأخرى من جهة، وبين النشاط العصبي الأدنى من جهة أخرى"<sup>[6]</sup>... إذن، الدماغ مهيّأ لانتاج اللغة بل وأنّه قد طور الأصوات أيضاً، فالجهاز العصبي تطور على نحو يجعل الأصوات أيضاً تتتطور. فجا كبسون عندما لاحظ "التغييرات الفارقة التي تنتج من الملامح المميزة كان قد أشار إلى أننا نستطيع التمييز بين (Sleep) و(Slip) كون الدماغ مهيّأ لتنظيم الأصوات في فئات فونيمية، فهو لا يقوم بتحليل اللغة من حيث هي تدفق مستمر من المدخلات السمعية بل يعطي تأوياته للإشارات التي يسمعها"<sup>[7]</sup>. ويبدو أنّ الدماغ قد أصبح أكثر رقياً عندما تعلم الكاتبة ما يعني وجود "مناطق جبهية جديدة ومحممية جدارية جديدة أيضاً القراءة تعني فهم الخطوط وحركاتها وإدراكتها الأمر الذي يقودنا إلى القراءة، ولا شك أنّ القراءة تستوجب وعيماً مسبقاً ينطلق من عضلات العين التي تؤدي إلى تقويم الأشكال على المستوى النظري"<sup>[8]</sup>.

يتبيّن ما سبق أنّ اللغة هي العمود الفقري للتفكير وأنها تجسيد لعالم العقل كون التفكير والعقل يصوغان عالمهما باللغة. فاللغة هي أداة التفكير لصياغة أفكاره وأداة العقل لتوجيهه فعالياته؛ فالوعي يمثل "الفكرة المحررة لفظاً" والوعي عند الإنسان يعني التسمية وأن كل ما يخضع لقوانين النظام الأوّل المشابه للفكرة الحيوانية لا يصبح كامل الوعي إلا إذا انتقل إلى النظام الثاني مقولاً وفق قانون اللغة الخارجية الذي تعلمنا كيفية استعماله للتعبير عن فكرنا"<sup>[9]</sup>. ويشير شوشار إلى مسألة أساسية وهي أنّ الحقل اللغوي لا يتسم بالوعي فقط، فنحن نفكر دون أن ندري وهنالك تعبير داخلي إضافة إلى وجود حيز كبير من أفكارنا يبقى لا واعياً. فللاوعي إذا لم يخضع للفظ فهو يخضع للتعبير ويصبح ملفوظاً، المهم أنّ الإنسان طالما بقي يفكر "وطالما بقي عقله يعمل فهو محافظ على إنسانيته أي متمكن من اللغة الداخلية حتى ولو كان عقله معتماً أو فقد نظام الإشارات الثاني سيطرته ونفوذه"<sup>[10]</sup>. فاللغة إذن، لا تقتصر على نشوء الأفكار بل على إدراكتها وتداوتها واللغة مرتبطة بالإدراك مما جعل القدرة على الخلق والابتكار من سمات الفكر

الإنساني، وباللغة يكون الإنسان قد تخطى المؤثرات الحسية واستطاع أن يفهم معاني الرموز والدلالات كونه يستند إلى المنظومة الإشارية (اللغة) التي تجاوزت منظومة الحيوان الإشارية (الحسية). فمع اللغة بدأ النشاط العصبي الأعلى يرتفع إلى التعميم والتجريد اللذين بهما نرتفع إلى معاني الكلمات، وفسلجياً فإنّ الفكرة الجديدة أو المبتكرة تنشأ "عندما تقرن أو تتلقّح أو تلتقي الارتباطات العصبية في المنطقة النشطة من القشرة المخية غير أنّ هذا الاقتران أو الخلق يحدث بشكل مفاجئ عند نضجه بين المراكز المخية اللغوية الموجودة في القسم الأمامي الأعلى من القشرة المخية، الأمر الذي يؤدي إلى اقتناص فكرة طريفة أو صورة شعرية رائعة قبل أن تفر من الذهن، فيتم انتهاقها في حقل الفن بما فيه الشعر في حالة حدوث الاقتران العصبي بين المراكز المخية الحسية، وفي حقل العلم في حالة حدوثه بين المراكز المخية اللغوية. ويبلغ الصراع المخي أعلى مرتبة في الحالتين بين الخلايا المخية النشطة وبين الخلايا المخية التي ما زالت باهتة النور، وتظهر في مجرى هذا الصراع صفات مخية جديدة يجوز أن نسميها مخاص الإبداع الذي يتصرف به العباءة، وهي حالة خاصة من الصراع المرير الحاسم الذي يحصل بين المجاري المخية التي تحاول الاحتفاظ بها على نسق الصراع الذي يحدث بين عوامل دفع الجنين إلى خارج الرحم وبين عوامل الاحتفاظ به" [11].

وقد أورد بافلوف أنّ "الفكرة والانفعال جانبان متباينان للوعي أي لانعكاس الواقع الموضوعي في عقل الإنسان؛ فال فكرة من جانبها تعكس ما يحدث في العالم الخارجي من موضوعات وأحداث بصيغة لفظية، والدليل أن صدقها يتوقف على كونها إشارات لفظية تتطابق مع الموضوعات الخارجية التي هي انعكاس لها بعيداً عن المشاعر الذاتية للمرء، أما الانفعال فالدور الأساسي لها هو تقويم دالة الموضوعات التي تعكسها الأفكار بالنسبة للفرد. وترتکز الانفعالات والأفكار وال العلاقات المتبادلة بينهما على النشاط العصبي الراقي الذي هو حصيلة نشاط نظم ثلاثة: النظام الحسي ونظام الكلام ومركزهما اللحاء ونظام الأفعال المنعكسة غير الشرطية ومركزه منطقة ما تحت اللحاء" [12]. ويرکز بافلوف - كما هو معروف - على الأفعال المنعكسة الشرطية فهي الوسيلة للتعميم الراقي لوطائف الكائن، فاللحاء المخي يوسع من التعميم الراقي كلما تكوّن فعل منعكس شرطي جديد. بهذا الشكل نجد أنّ الإنسان قد أوجد له طريقة للتفكير جعلته ينتقل من الأشياء الخارجية إلى حياة العقل، من الحسي إلى المجرد وذلك بواسطة اللغة. فاللغة هي صورة الوعي والحضارات وقد جعلها نعوم تشومسكي عضواً، يقول: "إنّ ملكة اللغة يمكن اعتبارها بشكل معقول عضواً لغوياً بالمعنى نفسه الذي يتكلم به العلماء عن الجهاز البصري أو جهاز المناعة باعتبارها أعضاء جسمية؛ يفهم بهذه الطريقة أنّ العضو ليس شيئاً ما يمكن انتزاعه من الجسم تاركين البقية، إنّه منظومة فرعية من بنية أكثر تعقيداً ونأمل أن نفهم التعقيد الكامل بالبحث في الأجزاء التي تمتلك

سمات مميزة وتفاعلاتها وأن دراسة اللغة تجري بالطريقة نفسها" [13]. وبالطريقة نفسها يمكن أن يكون العقل العضو الأكبر من تلك البنية المعقدة والتي تمتلك منظومات فرعية منها اللغة. لا شك أن مصدر الحصول على التفكير واللغة قد تكشف خلال الكلام السابق حيث الشكل الفسيولوجي للدماغ وما يحويه من استعدادات وتطور الإنسان بالطريقة الشكلية الملائمة للتalking والبيئة المحيطة به، حيث تقوى الاستعدادات البدائية الفسيولوجية وربما تبتكر استعدادات جديدة (أعضاء) حسب الوظائف الناشئة بفعل الحاجة والبيئة، إذن، عقل الإنسان يمكن رؤيته فسيولوجياً من خلال تصنيف قدراته إلى صنفين: 1- القدرات الفطرية ذات الأساس البيولوجي وهذه تظهر مثلاً في سرعة تكوين الوصلات الانعكاسية الشرطية وهذه مشتركة بين الإنسان والحيوانات الراقية الأخرى لأنّ الشروط التشريحية متوافرة لنشوء هذه القدرة. 2- القدرات الإنسانية الخالصة المكتسبة... معنى هذا أن علم النفس العلمي قد فقد وجهة النظر العقيدة التي تعتبر جميع أشكال النشاط العقلي وبخاصة الأكثر تعقيداً قدرات فطرية متحجرة" [14]. هذا الكلام الذي يشير إلى البيئة لا شك أنه يؤشر إلى عامل حاسم في رسم صورة العقل النهائية وهي التغلغل تاريخياً في العالم المحيط والممارسة الاجتماعية، حيث تحول الوظائف العقلية بالتدريج مع نمو الإنسان "الثقافى الجسمى إلى وظائف ذاتية داخلية أو سيكولوجية أو عقلية فردية" [15]، كون الإنسان وبفعل التطور التاريخي يكون قد تخطى المؤثرات الحسية الخاصة به إلى النشاط العقلي؛ وإنّ النشاط الأخير سيصمم في صورة فسلحية للعقل لا يمكنها أن تتجاوز دور البيئة الاجتماعية الذي ينعكس في المنظومة الإشارية للغة. فالتجزيدات اللفظية تنشأ من خلال الممارسة الاجتماعية عن الإشارات الحسية المباشرة التي تشير إلى الواقع" [16] والإنسان وفقاً لمبدأ التطور يعتريه نموان: نمو طبيعى يشمل جسده ونمو ثقافى يشكل عقله؛ وقد عرفنا دور النمو التدريجي في تشكيل العقل وسنؤكّد مع فيجونسكي صاحب الفضل في ابتداع مبدأ التطور التاريخي أنّ "النمو الثقافى يمثل نمو الوظائف العقلية العليا التي لا تتطلب تغيراً في الطبيعة البيولوجية للإنسان... تتمثل الخاصية الأساسية للسلوك الثقافي في اختيار واستخدام أدوات العمل (الأعضاء المصطنعة للإنسان) وهذا يفسر لماذا يرتبط نمو الوظائف العقلية العليا بخلق أدوات سيكولوجية معينة تعدل الوظائف الأولية ويتمثل هذا النمو في الإشارات (الكلمات، الرموز، الرياضة، الخطوط، الخرائط، الرسوم البيانية... إلخ) التي تؤلف الأدوات. وبمعنى آخر، الإشارات وسائل سيكولوجية للمثير ابتدعتها الكائنات الحية الإنسانية إضافة إلى موضوعات المثير التي تعمل خارج الإنسان" [17]. فخاصية الإنسان الأساسية المتمثلة بكونه اجتماعياً تجعلنا نفهم أهمية خلق الإشارات والألفاظ لكي يفكر عبرها وبالتالي تشكل العقل.

كنتيجة فإنّ الصورة الفسلجية للعقل بعد الكشف عن الدماغ قد أخذت بعدهاً جديداً لا يعلن عن أعضاء جاهزة كما هو شغل معظم الفلاسفة، بل أزّه قد أعلن عن العضو المسؤول عن تشكيل العقل وهو الدماغ. ومع هذا بقيت المطروحات العلمية غامضة في هذا الشأن، فالدماغ البشري معقد ومدهش والباب مفتوح لمعرفة الأكثر حوله... لكن رؤية عضوية للعقل مع العلوم العصبية تأتي بتلك الصورة المستقة من فعل التفكير لطرح عناصر (أعضاء) لابدّ منها لتشكيل العقل وهي "الواقع المحسوس والحواس والدماغ والمعلومات السابقة" [18].

الهوا مش:

- [1] - سفج، التطور، ص204.
- [2] - عفر، اللغة، ص57.
- [3] - راجع كرستين، المخ، ص85.
- [4] - نفسه، ص91.
- [5] - شوشار، بول، اللغة والفكر، ت: صلاح أبو الوليد، منشورات مادا أعرف، بدون سنة، ص54.
- [6] - عفر، اللغة، ص39.
- [7] - كرستين، المخ، ص88-87.
- [8] - انظر شوشار، اللغة، ص57.
- [9] - نفسه، ص68.
- [10] - شوشار، اللغة، ص72.
- [11] - انظر عفر، اللغة، ص108-108.
- [12] - انظر ويلز، هاري، بافلوف وفرويد، ت: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص160.
- [13] - تشومסקי، نعوم، اللغة والعقل واللغة والطبعية، ت: رمضان مهلل سدخان، دار الشؤون الثقافية، العراق، بغداد، 2005، ص19.
- [14] - عفر، اللغة، ص84-83.
- [15] - نفسه، ص100.
- [16] - ويلز، بافلوف وفرويد، ص161.
- [17] - فيجونسكي، ل. س، التفكير واللغة، ت: طلعت منصور، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1976، ص14-13.
- [18] - البدراني، هشام، العقلية الإسلامية، بناؤها وتكوينها، بغداد، 1990، ص21.

المصدر: كتاب (الفلسفة: فسيولوجيا العقل وعلم تшиريح الأفكار)